(تفسيرُ الشَّيخِ البرَّاك)

القارئ: أعوذُ باللهِ مِن الشَّيطانِ الرَّجيمِ: {وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ} [النحل:٨-١٣]

الشيخ: إلى هنا، لا إله إلا الله، لا إله إلا الله

يقول سبحانه وتعالى ممتنًّا على العباد بما خلق لهم من المراكب الحيوانية قال: {وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً} يعني وخلق، هذا معطوف على قوله: {وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا}، {وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ} [النحل:٥] إلى قوله: {وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ.. وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ} [النحل:٦-٨] يعني وخلق الخيل والبغال والحمير، هذه ثلاثة أنواع من الحيوانات التي تُقصد للركوب، أما الخيل فتُقصد في الغالب للركوب للقتال {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ} [الأنفال:٦٠]، والبغال تُركب في الحضر والسفر، للركوب، حتى إنه عليه الصلاة والسلام كان في غزوة حنين كان على بغلة وكان يركِّضها ويقول: (أنا النبيُّ لا كذبْ أنا ابنُ عبدِ المطَّلبْ) والحمير معروفة كلها تُستعمل في الغالب في الحضر وقد تُستعمل في السفر كذلك {وَالْحَمِيرَ} قال: {لِتَرْكَبُوهَا} يعني خلقها لتركبوها، خلقها لتركبوها، للركوب، مراكب، ولكن هذه تتميَّز بأنها لا تُقصد للأكل والعلماء مختلفون في، في لحم الخيل والصحيح أنه حلال لكنه من حيث الواقع لا يقصد أكثر الناس لا يقصدها للأكل، وأما البغال والحمير فحكمها التحريم، كانت حلالًا ثم نُسِخ ذلك، نهى رسول الله -ﷺ- عن الحمر الأهلية يوم خيبر {لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً} أيضًا فيها زينة، فيها جمال، مراكب، خصوصًا الخيل والبغال إذا وُضعت عليها السرج الجميلة وكذلك الحمير هي زينة لكن تُوضع عليها السُّرُج المناسبة {لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً} ولما خلق الله للعباد ما خلق من هذه المراكب الآليَّة، مراكب آلية صارت أفخم، وهذه السيارات وهذه الطيارات تُقصد للركوب والزينة، السيارات الفخمة تفنَّن فيها تفنَّن فيها الصانعون وأبدعوا فيها بتحسينها وتجميلها، مراكب، ولعلها هي المقصودة لعلها، لا نجزم إنها داخلة في عموم {وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} والله خلق للعباد هذه المراكب وإن كانت يصنعها الناس بأيديهم وبالوسائل فالله خالقها

والناس صُنَّاعها ولا نقول إنَّ هذه خلقها الإنسان، لا، يمكن صنعها بتسبُّب صناعي، وأما الخلق فالله هو خالقها؛ لأنه خالق جميع الوسائل التي كانت سببًا في وجودها من المواد ومن أفعال الناس والعقول {وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} وهذه المراكب الآن الموجودة الحاضرة هذه لم تخطر بالبال في الأجيال، لم تخطر لهم على بال أن تكون المراكب بهذه الفخامة وهذه السرعة وهذا الطيران وهذا وهذا وهذا، لا إله إلا الله، وكانت هناك مراكب أيضًا يصنعها الإنسان من قبل وهي التي، وهي السفن، وهي التي أول من صنعها نوح -عليه السلام- {فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ} [العنكبوت:١٥]، آية، {وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ} [الشورى:٣٢]، وكذلك نقول ومن آياته هذه السيارات، من آياته هذه من آياته ومن نعمه، ومن آياته هذه المراكب السريعة المتنوعة في الكبر والصغر والقوة والحسن تفاوت هائل عجيب، هذا من آيات الله {وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}.

{وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ} السبيل: الحق يُوصل إلى الله، ومن السبل ما هو جائر منحرف عن الطريق، فقصد السبيل هو الصراط المستقيم {وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ} هذا ينتهي ينتهي بسالكه إلى الله {وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ} فالهدى والإضلال إلى الله، فهو الذي يضل من يشاء ويهدي من يشاء.

ثم قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً} إلى آخر الآيات، وذَكَر هذه امتنان من الله بإنزال الماء وما ينشأ عن الماء، ماذا ينشأ عن الماء؟ ينشأ عنه أنواع الخيرات، أنواع النباتات والأرزاق التي يأكل منها الناس والأنعام، يأكل منها الناس وهذا كثير، الله يذكِّر بها {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ} [السجدة:٢٧]، سبحان الله، {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ} تسيمون الأنعام: ترعونها، هذه المراعي، المراعي التي ترعى فيها الأنعام الإبل والبقر والغنم {يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ} الزرع: الحبوب {وَالزَّيْتُونَ}، {يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ}، {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ} والنخيل والأنعام، الله أكبر، إذاً يدخل في هذا الامتنان المياه التي يستنبطها الناس من الأرض والأنهار يعني ليس خاصًّا بالماء الذي تنبت به الأعشاب بل كل هذه المياه التي نشربها وتُستخرج بالماء وتُضخ وتصل إلينا داخلة في هذا الامتنان {لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ} هذا الماء الذي يصنع الآن أخيرًا ويُعبَّأ بالعلب بالقوارير هذا داخل في قوله: {لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ}، {وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ} عموم بعد خصوص، عموم بعد خصوص {وَمِنْ كُلِّ

الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} تفكَّروا، تفكَّروا في خلقتها وفي منافعها وتذكَّروا من خلقها هذه آيات ونعم أرضية أرضية.

ثم يرتقي إلى الآيات والنعم السماوية {وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ} وهذه نِعم، الليل والنهار نعمتان وآيتان، نعمتان وآيتان {وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [القصص:٧٣]، رحمة من الله، لا إله إلا الله، {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ} [القصص:٧١]، {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا} [القصص:٧٢]، {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ} [الأنعام:٦٠]، ويقسم الله بالليل والنهار {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى} [الليل:١-٢]، المقصود {وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ} الكل بأمره، الكل بأمر الله، كل هذا الوجود يجري ووجوده وبقاؤه وما فيه من الأحوال والصفات والحركات كلها بأمره {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} فيها آيات لقوم لهم عقول يستعملونها ولكن أكثر الناس لا يعقلون ولا يتفكَّرون، لهم قلوب لا يفقهون بها، لهم قلوب لا يفقهون بها، سبحان الله! ثم قال تعالى: {وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ}، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ} اقرأ الآية {وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ}

طالب: {مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ}

الشيخ: {وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ}؟

طالب: {مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ}

الشيخ: {وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا} يعني ما خلق لكم {فِي الْأَرْضِ} يعني من الثمار والنبات {مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ}، {وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ} يعني من النبات والأنعام {مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ}، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ} جاء قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا} [فاطر:٢٧]، سبحان الله! ثمار ألوان وأشكال، شف [انظرْ] ثمرات النخيل الأحمر والأصفر والبين ذلك، والأعناب وسائر النباتات الفواكه بأنواعها، لا إله إلا الله، أكثر الخلق لا يتفكَّرون، ينظرون إلى هذه المخلوقات مثل ما تنظر البهائم ما لهم! إلا يقولون نروح لكذا لكذا نتفرج، لكن الي [الذي] يفتح الله عليه إذا رأى هذه هذه الآيات تذكَّر من خلقها وسبَّح بحمد الله وشكر الله..، سبحان الله، سبحان الله، وهذا كثير في القرآن يذكِّر الله بهذه النعم، فهذه المخلوقات هي آيات دالة على قدرة خالقها وحكمته ورحمته، وهي نِعَم، هي آيات ونِعم {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ}.

نعم يا مُحَمَّد.

القارئ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي –رحمه الله تعالى–:

{وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ} سخَّرناها لكم

الشيخ: سخَّرناها لكم؟ ها؟

القارئ: نعم

الشيخ: طيب بعدها

القارئ: {لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً} أي: تارة تستعملونها

الشيخ: أيش؟

القارئ: أي: تارة تستعملونها للضرورة في الركوب

الشيخ: وتارة تستعملونها أيش؟

القارئ: للضرورة في الركوب

الشيخ: نعم

القارئ: وتارة لأجل الجمال والزينة، ولم يذكر الأكل لأن البغال والحمر محرَّم أكلها

الشيخ: لا، باعتبار الحال الأغلب، وإلا الآية نازلة قبل تحريم، قبل تحريم الحُمُر، نعم، الآيات مكية وتحريم الحمر كان عام خيبر

القارئ: والخيل لا تُستعمل –في الغالب– للأكل، بل يُنهى عن ذبحها لأجل الأكل خوفًا من انقطاعها وإلا فقد ثبت في الصحيحين، أن النبي –ﷺ– أذن في لحوم الخيل.

{وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ} مما يكون بعد نزول القرآن من الأشياء، التي يركبها الخلق في البرِّ والبحر والجو، ويستعملونها في منافعهم ومصالحهم، فإنه لم يذكرها بأعيانها

الشيخ: لأنه؟

القارئ: فإنه لم يذكرها بأعيانها، لأن الله تعالى لا يذكر في كتابه إلا ما يعرفه العباد، أو يعرفون نظيره، وأما ما ليس له نظير في زمانهم فإنه لو ذُكر لم يعرفوه ولم يفهموا المراد منه، فيذكر أصلًا جامعًا يدخل فيه ما يعلمون وما لا يعلمون، كما ذكر نعيم الجنة وسمَّى منه ما نعلم ونشاهد نظيره، كالنخل والأعناب والرمان، وأجمل ما لا نعرف له نظيرًا في قوله: {فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ} [الرحمن:٥٢]، فكذلك هنا

ذكر ما نعرفه من المراكب كالخيل والبغال والحمير والإبل والسفن، وأجمل الباقي في قوله: {وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ} ولما ذكر تعالى الطريق الحسِّيَّ، وأن الله قد جعل للعباد ما يقطعونه به من الإبل وغيرها ذكر الطريق المعنوي الموصل إليه فقال:

{وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ} أي: الصراط المستقيم، الذي هو أقرب الطرق وأخصرها موصل إلى الله.

وأما الطريق الجائر في عقائده وأعماله وهو: كل ما خالف الصراط المستقيم فهو قاطع عن الله، موصِل إلى دار الشقاء، فسلك المهتدون الصراط المستقيم بإذن ربهم، وضلَّ الغاوون عنه، وسلكوا الطرق الجائرة {وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ} ولكنه هدى بعضًا كرمًا وفضلًا ولم يهدِ آخرين، حكمة منه وعدلًا.

قال الله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ} الآيات، {يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} بذلك على كمال قدرة الله الذي أنزل هذا الماء من السحاب الرقيق اللطيف ورحمته حيث جعل فيه ماء غزيرًا منه يشربون وتشرب مواشيهم ويسقون منه حروثهم فتخرج لهم الثمرات الكثيرة والنعم الغزيرة.

{وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}. أي: سخَّر لكم هذه الأشياء لمنافعكم وأنواع مصالحكم بحيث لا تستغنون عنها أبدًا، فبالليل تسكنون وتنامون وتستريحون، وبالنهار تنتشرون في معايشكم ومنافع دينكم ودنياكم، وبالشمس والقمر من الضياء والنور والإشراق، وإصلاح الأشجار والثمار والنبات، وتجفيف الرطوبات، وإزالة البرودة الضارَّة للأرض، وللأبدان، وغير ذلك من الضروريات والحاجيات التابعة لوجود الشمس والقمر.

وفيهما وفي النجوم من الزينة للسماء والهداية في ظلمات البر والبحر، ومعرفة الأوقات وحساب الأزمنة ما تتنوَّع دلالاتها وتتصرَّف آياتها، ولهذا جمعها في قوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} أي: لمن لهم عقول يستعملونها في التدبُّر والتفكُّر فيما هي مهيَّأة له مستعدَّة تعقل ما تراه وتسمعه، لا كنظر الغافلين الذين حظُّهم من النظر حظُّ البهائم التي لا عقل لها.

{وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ}.

أي: فيما ذرأ الله ونشر للعباد من كل ما على وجه الأرض، من حيوان وأشجار ونبات، وغير ذلك، مما تختلف ألوانه، وتختلف منافعه، آية على كمال قدرة الله وعميم إحسانه، وسعة برّه، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، {لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ} أي: يستحضرون في ذاكرتهم ما ينفعهم من العلم النافع

الشيخ: يستحضرون؟

القارئ: يستحضرون في ذاكرتهم ما ينفعهم من العلم النافع، ويتأمَّلون ما دعاهم الله إلى التأمُّل فيه حتى يتذكَّروا بذلك ما هو دليل عليه.

الشيخ: أحسنت

القارئ: {وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ}

الشيخ: إلى هنا، لا إله إلا الله، لا إله إلا الله، سبحان الله العظيم، لا..، يا الله، الله المستعان، لا إله إلا الله، سبحان الله وبحمده، سبحان الله، والتفكُّر والتذكُّر واستعمال العقل هذا طريق من طرق الهداية، هذا، الهداية لها طريقان: الكتاب المنزَّل والكون المشهود، فهما طريقان، التدبُّر لآيات الكتاب والتفكُّر في آيات الوجود فهذان طريقان من سلكهما اهتدى، من سلكهما اهتدى بتوفيق الله، أما من أعرض فإنه يبوء بالبوار والشقاء {وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. وَهُمْ عَنْهَا} [يوسف:١٠٥]، وكأين من آية في السموات والأرض وهم عن آياتها معرضون، يقول تعالى: {وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا} مرفوعًا {وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ} [الأنبياء:٣٢]